٩- الدين والسلوك الانسانى

للاستاذ عمر حليق

الجماعة الدينية :

رأينا أن للجماعة الدينية فى النظام الاجتماعى وظيفة مزدوجة؛ فهى تصون ذلك النظام وتتسق اتجاهاته ومثله العليا وتساعد بذلك على توجيد عناصر السلوك الإنسانى فيه فتحقق تكاملا اجتماعيا سليما . والوجه الثانى لهذه الوظيفة المزدوجة هو فصل تلك الجماعة عن المجتمع الأكبر روحيا واجتماعيا . ولنبدأ بمعالجة الوجه الأول :

للجماعة الدينية دستور مدون يبين وظيفتها الاجتماعية هو كتابها المقدس؛ وعلى مقدار صلاح ذلك الدستور لمواجهة التطور فى الزمان والمكان يتوقف استمرار تلك الوظيفة ومبلغ إتقانها لثورات الفكر أو تقبلها لدعوات الإصلاح

والتكامل الاجتماعى لتلك الجماعة الدينية يتقى كثيراً من الشر إذا فسح المجال لدعوات الإصلاح أو ثورات الفكر أن تجادل وظيفة الدين الاجتماعية على أن يكون صلاح تلك الجماعة مستمدا من روح العصر ولغته وعلومه ومعارفه

ودفاع الجماعة الدينية عن وظيفتها الاجتماعية لا يكون بوقف باب الاجتهاد وإنما يكون بتصحيح الأخطاء التى تنتج عن سوء اجتهاد المصلحين أو الملحدين . فالشك سبيل إلى اليقين ، ومعالجة الشك لا تأتى إلا بطريق الإقناع . والشك مرض ، وأمراض العالم تعالج بأسلحة حديثة وإلا نفر الناس من الجماعة الدينية نفورهم من الحلاق أو الساحر الذى يعالج المرض بوسائل ما قبل التاريخ . والتشكك المفكر لوظيفة الدين والثائر على الجماعة الدينية إذا عجز عن الاقتناع مثله مثل المريض الذى يأبى التطبيب فيموت بعلته

ولكن من حق الجماعة الدينية إذا عجزت عن إقناع المفكر لها الثائر عليها أن تحاربه بأقصى ما تستطيع من عنف وجهد ، وإلا كان مثلها مثل الجماعة التى تقصر عن علاج المجذوم ثم تتركه ينقل العدوى إلى جسمها الأكبر

ولقد أعرب جماعة كبار علماء الأزهر عن هذه الحقيقة حين ناقشوا كتاب الأستاذ خالد محمد خالد « من هنا نبدأ » فقالوا « إن لكل فرد من المسلمين (الجماعة الدينية الإسلامية) الحق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ والنكوص عنه مع القدرة عليه إثم عظيم (١) »

فصمة الصدر لدى الجماعة الدينية فى مناقشة المتشككين والمدعين ضرورية للتكافل الاجتماعى الذى هو من خصائص وظيفة تلك الجماعة . فتاريخ نمو الوعى الدينى كتاريخ نمو الوعى السياسى والاقتصادى كان وليد النقاش والجدل والشك والإقناع ، وإلا فالجمود صفة تلازم الجماعة التى لا تناقش ولا تجادل ولا تقنع المتشكك الثائر

ومناقشة الجماعة الدينية فى وظيفتها الاجتماعية ونهوض تلك الجماعة للدفاع والإقناع وسيلة من وسائل تنشيط الفكر ، وتهيئة تلك الجماعة لمواجهة التيارات المستجدة فى التفكير والسلوك . فالتطور الفكرى غريزة فوق أنه ظاهرة تستمد وجودها من طبيعة الأشياء . فإذا تسلحت تلك الجماعة بسلاح العصر استطاعت أن تكشف فى وظيفتها الاجتماعية نواحى جديدة لم يفطن إليها السلف فتزيد بذلك من مكانتها فى النظام الاجتماعى وتعزز كيانها فتزيد من سلطانها الروحية رسوخاً وقوة

فالمشكلة إذن ليست فى ميلاد الشك والثورة الفكرية وإنما فى مبلغ استعداد الجماعة الدينية للتعرف على حقيقة وظيفتها على ضوء العلم والمعرفة المستمدة من روح العصر

ويجب أن لا يساء الفهم فى تحديد معنى الجماعة الدينية ووظيفتها . فالجماعة الدينية لا تعنى فقط أئمة الرأى وحفظة الدين والنخبة الممتازة التى تتخصص فى تدريس الدعوة ونشرها بين الناس والقيام على إحياء شعائرها

فقد عرف (هوات) الجماعة الدينية بأن يكون لها (تاريخ خاص وكيان اجتماعى خاص وخصائص خاصة وسلوك وأهداف وغايات

(١) راجع عددى ٣ و ٤ يونيه سنة ١٩٥٠ من جريدة المصرى

خاصة (١) وقد يفهم من هذا أن مفهوم الجماعة ينطبق على جميع المؤمنين الذين يعتنقون العقيدة ويؤمنون بها . وهذا تعريف صحيح ؛ ولكن علم الاجتماع وإن كان يؤمن بصدق هذا التعريف وصوابه يصر على « أن الظاهرة الاجتماعية فى العبادات والسلوك الدينى مدينة إلى جهود الخاصة من حفظة الدين والمتبحرين فى اختباره ودراسته وصيانة تعاليمه من سوء الاجتهاد والتحوير (٢)

وهذا يعنى أن عبء وظيفة الدين فى تحقيق الشاكل الاجتماعية يقع جزء كبير منه على الخاصة من أهل العلم والاجتهاد والأئمة

فالتحريف فى الطقوس والعبادات يعنى تحريفا فى أوجه التكامل الاجتماعي الذى يكون للدين ضلع كبير في توطيده وتحقيقه . وكلما تعقدت الطقوس وأنواع العبادات ازدادت مسؤولية الخاصة من حفظة الدين ، وبالتالى ازداد أثرهم فى توجيه التكامل الاجتماعى خيراً أو شراً تبعاً لاستعدادهم لمواجهة التحدى الفكرى (الشك والثورة) الذى يكاد ينحصر فى انتقاده للطقوس والعبادات والرمزيات التى تعبر عن العقيدة الدينية لا لجوهرها

وكلما كان الدين وتعاليمه وعباداته وطقوسه فى متناول العامة من المؤمنين كان صيانة تلك التعاليم أكثر سهولة

وظيفة الإمام العالم فى المسجد تختلف عن وظيفة الكاهن فى معبد بوذى مثلا . فالإمام وظيفته ديمقراطية بمعنى أنه يؤم المؤمنين فى إقامة الصلاة ، بينما وظيفة الكاهن أو الراهب وظيفة مهنية تنحدر إليه بطريقة معينة سبلها وأسسها وشروطها . ذلك لأن الإسلام وقد خلا من الكهنوت ترك الإمامة لأكثر الحضور أهلا فى إقامة شعائر الدين فتجنب بذلك حصر السلطة الدينية فى أيدى الخاصة

ولقد اتبع المسلمون فى العصور الحديثة تقليداً يدل على مدى مرونة الإسلام فى مجاراته التطور . فأصبحت الإمامة فى المساجد لجماعة من الذين تفرغوا لرعاية شعائر الدين على نحو يلائم الحياة اليومية الحديثة التى تتطلب من المؤمنين أن يقوموا بوظائف الحياة الاقتصادية المعقدة فلا تمكنهم ظروفهم من اختيار من يؤمهم فى الصلاة كلما دعاهم المؤذن إليها

ولكن هذا التقليد لم ينف الجوهر الديمقراطى فى وظيفة الإمام . فهو لا يتميز عن بقية المؤمنين بشئ ، ولا تزيد حسنته عند الله مثقال ذرة ، ولا يتخذ لنفسه صبغة الاحتكار للشؤون الدينية

والامام أو الواعظ فى الإسلام ليس عمله أن يقيم شعائر الدين بالنيابة عن بقية المؤمنين ولا أن يكون وساطة بينهم وبين الله . فبدون الإمام تقام تلك الشعائر ، وإقامتها واجبة على كل مؤمن ، وإنما وظيفته أن يسهل لهم سبلها بالوعظ والإفتاء والإقامة ، وأن يشرح لهم ما استعصى عليهم فهمه من أمور الدين ؛ فهو إذن لا يتميز عن بقية المؤمنين بمهنة موروثة أو درجة معينة

فإذا كانت وظيفة حفظة الدين فى الإسلام ديمقراطية فإن من واجبها أن تجادل الناس وتثقفهم وأن تستمع إليهم وترد على شكوكهم وتوجههم توجيهاً يتفق مع هذه الوظيفة الديمقراطية التى تحفظ التوازن فى نطاق المصلحة الجوهرية للأكثرية التى تؤلف الجماعة الدينية

ومما يزيد فى أهمية هذه الوظيفة الديمقراطية لحفظة الدين فى الإسلام أن ردهم وإقناعهم ومنطقهم وتوجيههم مستمد من المادة الأولى (القرآن والحديث والقياس والإجماع) التى هى فى متناول جميع المؤمنين . فإذا تكلم المفتى أو الإمام أو الواعظ فإنما يردد ما يقرأه عامة المؤمنين صباح مساء فى صلواتهم وأدعيتهم وكتبهم الدينية . فالدستور الدينى فى الإسلام ليس رموزاً ولا طقوساً معقدة صعبة الفهم والإدراك

فوظيفة حفظة الدين فى الإسلام كوظيفة النائب فى البرلمان يتقيد بمواد الدستور وينوب عن الشعب فى التعبير عنها . ومهما اختلف الناس فى صلاح هذا النائب أو ذاك وفى قدرته وتضلعه فى معالجة المشاكل فإن الاختلاف لا يمس جوهر الفكرة الديمقراطية التى بعثت به إلى قبة البرلمان

إذن فالعلاقة بين حفظة الدين والقائمين على دراسة تعاليمه وشروحه وتفاسيرها ووظائفها الاجتماعية و شرها بين الناس

---

(١) A. B. Hall, The Sources and Methods of the Sociology of Religion

(٢) Malinowski Magic Science and Religion ٣٠ ، ٣٦